لمحات بمآثر المسلمين الجغرافية

الدكتور رشيد حميد حسن
الجميلي
كلية التربية للبنات - جامعة
بغداد

عرف الاجداد بمآثرهم العظيمة الخالدة في شتى مجالات العلم والادب والفكر والفن والثقافة،حيث تركوا فيها جميعا اثارا شاخصة تدلنا حتى اليوم على الدرجة العلمية التي بلغهاالمسلمون ابان عصر نهضتهم . ومن هذه المجالات التى تجسدت فيها عظمة وعبقرية العربي المسلم ، علم الجغرافية .

لقد برهن الجغرافيون المسلمون على وجودهم فى هذا الميدان ، وتتجلى لنا اية ذلك فى مؤلفاتهم القيمة التى جاءت تعبيرا عن رحلاتهم واسفارهم الكثيرة لمناطق مختلفة من عالمهم انذاك ،والى الرسوم التى صاغوها فى هذا الحقل والتى اعتمد عليها الغرب فيما بعد اعتمادا كبيرا. ولكن الأهم من ذلك كله هو ان المسلمين كانوا قد جمعوا فى دراستهم هنا بين الجغرافية وعلم الفلك . وعلى الرغم من ان تراث اليونان الجغرافى – وعن طريق ترجمة البعض من المصنفات اليونانية فى هذا المضمار مثل كتابى

الجغرافية والمجسطى لكلوديس بطليموس – كان العامل المساعد للمسلمين فى تقدمهم فى البحوث والكشوف والرسوم الجغرافية ، الا انهم استطاعوا بفضل جهودهم وتجاربهم الشخصية القائمة على الاسفار والترحال من ان يبدأوا نتاجا جغرافيا اسلاميا بحتا لا أثر فيه للرومان أو اليونان أو السريان أو غير هؤلاء .

وإذا كان لا بد لنا من التساؤل هنا عن الاسباب التى دفعت المسلمين الى دراسة الجغرافية فان الاجابة تكمن فى واقع دينهم ودنياهم . فحين ظهر الاسلام فى العرب ، وكان هدفه ان تنتظم هذه الارض من مشرقها الى مغربها ، وكان تحقيق هذا الهدف لا يتم الا بان يحبب اليهم الضرب فى الارض،والابعاد فى الرحلة عن الاهل والوطن برا وبحرا جهادا فى سبيل الله وأعلاء لكلمته .

وقد أذكى القران الكريم العزائم فى معارض مختلفة للضرب فى البر وركوب البحر . فمن من المسلمين لا يتذكر ايات الدعوة الى السير فى جوانب الارض ذات الطول والعرض: **((أو لم يسيروا فى الأرض))**[١].

وقوله تعالى :

((هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور))[٢].

((قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين))[٣].

((أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو اذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصارولكن تعمى القلوب التى فى الصدور))[٤].

ومن من المسلمين لا يتذكر ايات الدعوة الى ركوب الجواري المنشآت فى البحر كالأعلام للانتفاع مما في البحر من لحم طري يؤكل وحلية تلبس وخير يفاد ، ومما يؤدي اليه ركوبه من الاتصال بالعالم ومعرفة البلاد والعباد وعليها يكون قيام العمران ؟
قال تعالى:
((الله الذى سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون)).(٥)

((وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)).(٦)

((ربكم الذى يزجي لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما)). (٧)

((وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام)).(٨)

ان هذه الدعوة القرانية الى الانتشار فى العالم المعمور ، بتحبيب الضرب فى الارض ، وركوب البحار ، قد وافقت من العرب طبيعة مواتية ، واستعدادا موروثا كسبوه من هذا التطواف الدائم فى مواطنهم والرحلة الى البلاد المجاورة وغيرها. (٩)

ثم طلب العلم ، فقد قال الرسول (ص) : **((طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)).**

فلما استقر الاسلام فى رقاع امبراطوريته ، ونشأت مراكز العلم فى الاجزاء العربية وغير العربية منه،رحل الناس فى طلب العلم من مكان الى آخر.فهذا بغدادي يشدرحاله الى دمشق وهذا دمشقي يقصد بخارى،وهذا تونسي يرحل الى القاهرة،وهذا قاهري يطلب العلم فى فاس . وهكذا فقد كان المسلمون ينتقلون فى سبيل انتجاع المعرفة من قطر لآخر وان علماءهم ليحرصون على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف ويستفيد منها ، ومن رحلة طلب العلم هذه وصلت إلينا أخبار وأخبار هي من مفاخر التراث العربي. (١٠)

وظفرت الجغرافية خاصة بعناية المسلمين اذ شعروا مبكرين بحاجتهم الى تحديد دقيق لوضعهم فلقد كان عليهم ان يعلموا شيئا عن النجوم الثابتة ، ومسير الكواكب المتحركة وغير ذلك من الاجرام السماوية. كما ان علم التنجيم الذى يتطلب تعيين خطوط الطول والعرض لكل موضع فى الارض كتوجيه القبلة نحو مكة فى بناء المساجد ، وضرورة تعيين القبلة على وجه الدقة كي يولي العابد عند الصلاة وجهه شطر الكعبة، حدا باربابه على الاعتناء بالجغرافية .

لقد كانت المعرفة الفلكية بالنسبة لأبناء الصحراء ذات اهمية بالغه وقيمة نافعة، ولا يفوتنا ان الاتصال وثيق بين هذا العلم والرياضيات . ولما كانت معرفة مواقع النجوم تؤدى الى تحديد خطوط الطول والعرض ، فقد نالت الجغرافية الرياضية وصناعة الخرائط مكانتها بسبب ما أوليت من عناية مبكرة .

ومن الامور الاخرى التى كانت موضع عنايتهم وملاحظتهم الدقيقة ضمن هذا المجال ، هو ما عرف عنهم من متابعة لتغيرات الطقس ليستعينوا بذلك على الترحال فى فجاج الصحراء المترامية الاطراف بقصد الحرب أو السلم على السواء .

كذلك كان على القوم ان يتنقلوا بين الحين والحين بقطعانهم من غنم وماشية - وهى اعز ما يملك سكان الصحراء – إنتجاعا للمرعى الطازج الجيد. ولقد تيسرت للعرب وهم يضربون فى الارض اسباب التعرف على النبات والحيوان السارح فى الصحراء وما أكثر ما أدخره الشعر والنثر البليغ والحكم والخطب من معلومات عن التاريخ القبلي والبيئة الطبيعية لتلك

الجماعات . فلا عجب اذن ان نلمس آثارا عربية ذات صلة بمسائل جغرافية من قبل ان يحين مولد الجغرافية العلمية عند العرب .

وهنا لا ينبغي ان يغيب عن تقديرنا ذلك الباعث العظيم للاستطلاع الذى تستثيره مؤتمرات الحج السنوية الى مكة ، وما كان لمسلم الخيرة فى هذا الامر ، فهو فريضة الدين على من استطاع اليه سبيلا . وهكذا اندفع صوب جزيرة العرب فيض من القصاد لا ينقطع ، يأتون ملبين من كل فج عميق من دار الاسلام .

لقد كان للحج اثر واضح فى تشجيع الرحلات ، اذ أن تادية هذه الفريضة اوجبت على المسلمين ان يسافروا من اقاصي الارض الى مكة لزيارة كعبتها والتعرف الى مهد النبوة .

وظل الحج على هذا النحو فترة فراغ من اعباء الحياة فريدة فى بابها، تتيح لعالم الاسلام العظيم دربة وخبرة ، وتهيء فرصا واسعة لتبادل الاراء وحكاية تجارب السفر عندما يلتقي باخوانهم فى الدين الاف المسلمين من الاجناس المختلفة الذين قدموا من بيئات اجتماعية وطبيعية متباينة ولم يكن جميعهم ممن يدون اخبار اسفاره ، ولكن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من اهل العلم الى تدوين مشاهداتهم . وكثيرا ما كان القيام بهذه الفريضة نقطة انطلاق للرحالة الحاج يندفع على اثرها الى الضرب فى البلاد وتفقد عادات اهلها واستقصاء احوالهم وامزجتهم . ومن هنا فقد كان الحج باعتباره احد الشعائر الاسلامية من الاسباب التى اثارت الكتاب فجعلتهم ينشطون الى تدوين ملاحظاتهم ومشاهداتهم امثال : ابن جبير وابن بطوطة فى العصور المتاخرة ،فخرج من ذلك ايضا تراث كبير فى ادب الرحلة . ويقابل هذا بالنسبة لطلاب العلم ما ينظم اليوم من رحلات دراسية الى الخارج . ويمكننا ان نحتسب السنوات التى كانت تنفق فى قصد مكة والمدينة ثم الاياب منهما فى خطوات وئيدة معهودة عن مواصلات العهود الوسطى بمثابة فترة تفرغ لرحلة دراسية بالنسبة للباحثين المسلمين شبابهم وشيوخهم.(١١)

ثم ان الفتوحات الاسلامية قد اتاحت للمسلمين وسائل السفر فى امبراطوريتهم المترامية الاطراف ، وهيأت لهم اسبابه ، ومكنتهم من ان ينشروا لغتهم ومبادىء دينهم ومدنيتهم فى كل ناحية ، فلم يبق التجوال

ضربا من التغرب لان العربي كان يجد اينما حل قوما يفهمون لغته ، ويعتبرونه ضيفا يحتفون به .
يضاف الى ما تقدم عاملا التجارة والسفر ، فالتجارة عند العرب منذ العصر الجاهلى كانت عاملا له اهميته فى ازدياد حركة الاتصال بينهم وبين البلدان المعروفة لهم آنئذ . ولما ظهر الاسلام تعاظمت التجارة الى حد تجاوز حدود فتحهم ، فرأينا التجار المسلمين ينهضون الى اطراف الارض ينقلون البضائع ويشترون السلع ، وقد بلغوا فى ذلك الى اقصى بحار الصين ، وسواحل البلطيق،وصحارى افريقيا الداخلية،وبلاد الاندلس، والمحيطين الاطلسي والهندي، وخلفوا فى هذه الممالك نقودا وآثارا يكتشفها الباحثون يوما بعد يوم وعليها اثر من هؤلاء التجار.
ثم ان الاخبار التي عاد بها هؤلاء التجار كان لها اثرها فى اثارة اهتمام ابناء المناطق التى كانوا يقطنونها مما ولد الرغبة عند هؤلاء بالقيام برحلات مماثلة بقصد الاطلاع على احوال تلك البلدان وشعوبها .

اما التوسع السياسي وانتشار رقعة الدولة فى مسافات شاسعة من أنحاء العالم القديم ، فقد أديا إلى زيادة اهمية المعلومات عن اطراف العالم الاسلامي ، وجعلا العرب فى امس الحاجة الى ان يعينوا الحدود ، ويعرفوا المسالك ومواقع المدن لحفظ حقوق بيت المال وتنظيم طرق البريد وساعدا بذلك على الرحلة والسفر فرأينا العرب يضربون بسهم وافر فى هذا السبيل ، ويسافر الكثيرون منهم لدراسة البلاد وطرقها وتعيين مسافاتها. (١٢)
المهم هنا ان ما تهيأ للمسلمين من اسباب النشاط والحركة والاتصال قد أدى الى اتساع معارف المسلمين بالممالك والمسالك اتساعا لم يتيسر مثله لليونان ولا للرومان ولا للفينيقيين ، وكانت هذه الامم قبل العرب والاسلام اقدم تجار العالم ، واكثرهم اسفارا ، واغزرهم علما بالبلاد والمسالك ، ولكنها لم يتح لها ما اتيح للمسلمين : من امتداد النفوذ والإنتشار فى اقطار المسكونة ووسائل الاختلاط التى ازالت الفوارق العنصرية أو كادت ، وأقامت مقامها وحدة العقيدة والاخاء الروحى التي أدت الى امتزاج الدماء.
على ان امتداد المسلمين هذا الامتداد الواسع فى العالم قد أثار فى علمائهم ورواداهم ورحاليهم الرغبة الشديدة فى الازدياد من التوسع فى المعرفة ، والطموح الى كشف المجهول والتفكير فيه و المغامرات من اجله ، وهى

امور تكشف بعض الشيء عن مبلغ اصالة هذا العلم عند المسلمين وقيام ما كتبوه فيه على تأملاتهم واختباراتهم ورحلاتهم ودراساتهم العملية فى تتبع احوال الاقاليم والامصار ، وهي الينبوع العظيم الذى استفاض معينه على اقلامهم فى التصوير الدقيق ، والوصف التشخيصي الممتاز للبلدان والمسالك ، وطبائع الشعوب ، وأحوال العالم على عهدهم الميمون .

كان اتساع حدود الامبراطورية الاسلامية العظمى ، وانتشار الدين الاسلامى والثقافة العربية الخالصة فيها من أكبر الدواعي الى نشاط هذه الرحلات والاسفار ، والدراسات العلمية ، وامتلاء نفوس المسلمين على اختلاف طبقاتهم بحب الاسفار الى الامصار ، وامتداد مطارح انظارهم إلى الآفاق البعيدة ، وقد شمل هذا النشاط الخلفاء والملوك والامراء .[١٣]

فاذا أضفنا الى هذه العوامل كلها شوق العربى الى المجهول ، واندفاعه الى الرحلة فى طلب العلم الذي فشا أمره فى القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد) ، استطعنا ان نلم بالعوامل الاساسية التى حفزت العرب الى الاهتمام بالرحلة وتسطيرهم اخبارها فى كتب دونوا فيها مشاهداتهم ، ورووا ما حدث لهم فى مختلف النواحي والأقطار.

وقد اخذت طلائع هذه الكتب فى الظهور منذ القرن الثالث الهجري ، واستمرت فى تضخم وازدياد طوال القرون الخمسة التالية ، حيث احتلت على ايدي فئة من الرحالين درجة ادبية رفيعة وتبوأت مكانة سامية بين غيرها من كنوز االتراث العربي.[١٤]

لقد كان المسلمون شعبا يحب الترحال ، وكان التوسع العظيم لدولتهم الذى خرج بهم الى شعوب وبلدان عديدة ، والذي جعلهم دائما على سفر ، اكبر عامل ساعدهم على جمع المعلومات الصحيحة ومقابلة النابغين من العلماء والاخذ عنهم . كما كان لرحلاتهم التى قاموا بها أثر كبير فى قدرتهم على كتابة تقارير مفصلة فى وصف البلدان التى زاروها ، وبهذا بدأ علم الجغرافية عند المسلمين يأخذ شكلا علميا صحيحا .(١٥)

وفى حديثنا عن الرحلات والرحالة المسلمين ،علينا ان نشير هنا الى مسألة اساسية تتعلق بطبيعة هذه الرحلات . فالرحالة المسلمون كانوا صنفين : صنف طاف البلدان لهدف علمي وذلك ليسجل المعلومات الجغرافية والاجتماعية عنها تسجيلا امينا ، وينتمي لهذا الصنف الجغرافيون الرحالة، وصنف ساح فى الامصار لغرض تجاري أو سياسي أو ديني ، ثم دون مشاهداته وملاحظاته فى كتاب ، وهذا الضرب من كتب الرحلات يغلب عليه الطابع الوصفي البحت .

ويعتبر أحمد بن أبى يعقوب بن واضح اليعقوبى ، وأبو القاسم محمد بن حوقل ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي ، وعلي بن الحسين بن علي المسعودي ، والشريف محمد بن محمد الادريسي ، اشهر رحالة الصنف الاول ، فقد عملوا على تسجيل معلومات جغرافية دقيقة وأمينة عن أقطار العالم العربي والاسلامي لا تستند الى السماع والنقل من الكتب فحسب ، بل تعتمد على المشاهدة الشخصية ايضا .

فلقد طاف اليعقوبي بالجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق ومصر والمغرب العربي والاندلس . وزار ارمينية وبلاد فارس والهند ، ثم كتب مؤلفه المشهور ((كتاب البلدان)) الذى يعتبر رائدا فى الجغرافية العربية الوصفية. (١٦)

واليعقوبي هوأول جغرافي بين المسلمين وصف الممالك معتمدا على ملاحظاته الخاصة . وهنا يحدثنا المؤلف عن هذا الاسلوب فيقول : ((إني عنيت فى عنفوان شبابي ... بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السن واتصلت اسفاري ودام تغربي . فكنت متى

لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ... وبلده ... وزرعه...))[١٧].

ومن يطلع على كتاب البلدان سيرى ان المؤلف قد ضمن كتابه هذا الكثير من أسماء المدن والممالك ، يصفها ويجمع اخبارها ،إضافة الى تدوينه لملاحظاته عن بعض المظاهر الجغرافية الطبيعية ، والمجتمعات التى اختلط بها ، ومن هنا يمكننا ان نعتبر اليعقوبي على انه من أوائل الذين اهتموا ببعض نواحي الجغرافية البشرية . لكن اكثر ما عرف به اهتمامه بالاحصائيات وبالوصف الطوبوغرافي للمدن .

وساح ابن حوقل فى ديار عديدة من ديار الاسلام كالهند وارمينية وبلاد ما وراء النهر وبلاد فارس بال‌إضافة الى الأندلس وبعض اقطار شمال أفريقيا وقد أمضى ما يقرب من ثلث قرن فى تلك الجولات، ثم أخرج كتابه المعروف ((المسالك والممالك والمفاوز والمهالك أو كتاب صورة الارض)) ، الذى تناول فيه باسهاب وصف مدن أقطار العراق والهند وفارس وبلاد ما وراء النهر ،كما تحدث عن أهم معالمها الجغرافية، وقد زود كتابه بخرائط جيدة .

وطوف المقدسي فى أغلب ديار الاسلام - عدا الأندلس والهند - وفى نيته تأليف كتاب جغرافي عن العالم الاسلامي، فزار العراق ومصر وبلاد فارس بأقسامها المختلفة واقطار المغرب العربي ، ثم عكف على تأليف كتابه ((أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم)) ، الذي جاء مثالا للمؤلفات الجغرافية الناضجة بتفصيلاته الطبيعية والاقتصادية والبشرية ، لا سيما ما يتعلق بالعراق وبلاد الشام .

أما المسعودي فقد تنقل فى انحاء العالم القديم على نطاق واسع ، فزار بلاد فارس والهند وسرنديب (سيلان) ومدغشقر وأذربيجان وجرجان وبلاد الأناضول ، وتجول فى البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي وبحر الصين . كذلك طاف باغلب البلاد العربية ، كبلاد الشام وفلسطين وعمان وجزيرة العرب ، ثم استقر اخيرا فى مصر ،وقد دون معلوماته الجغرافية فى موسوعته الضخمة ((مروج الذهب ومعادن الجوهر)) – لا سيما الجزء الاول منها – كما سجل شذرات منها فى كتابيه ((التنبيه وال‌إشراف)) و

((أخبار الزمان)) ، وقد اتصفت موضوعاته بالحيادية والموضوعية تجاه الاقطار الإسلامية وغير الإسلامية ، واكتسبت أهمية كبيرة بالرغم مما يشوب البعض منها من مبالغات وأوهام .

ويمثل الإدريسي خاتمة الجغرافيين العرب الرحالة ذوي الأصالة العلمية والتفهم الصحيح للعلم الجغرافي ، وهو أكثر الجغرافيين العرب والمسلمين معرفة بالأقطار الاوربية والأفريقية ، وقد زار أسبانيا (الأندلس) وجنوبي فرنسا وايطاليا واليونان وبلاد الأناضول وجزر البحر المتوسط كما تجول فى أقطار المغرب العربي والسودان الشرقي ، ولم يتح له السياحة فى ديار الإسلام البعيدة كالهند وتركستان وكذلك الصين ، لذلك كانت معلوماته عن تلك الجهات غامضة ومشوشة ، وقد ألف بناء على طلب ملك صقلية روجر الثانى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) كتابه المشهور ((نزهة المشتاق في اختراق الآ فاق)) ، الذي اعتمد في تأليفه على مشاهداته الخاصة وعلى ما تيسر له جمعه من المعلومات عن طريق التجار والربابنة وكتب الجغرافية والرحلات .ويعتبر كتابه من أهم المراجع الجغرافية القديمة وقد ألحقه بخارطة للعالم ما تزال تعتبر من أفضل الخرائط القديمة في دقتها وشمولها.(١٨)

والإدريسى يمثل مدرسة جغرافية خاصة هي المدرسة العربية النورمانية، فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلا للحرية العلمية فى القرن الثاني عشر الميلادى. والخرائط التي رسمها الإدريسي كانت ذات أثر كبير فى تصوير الدنيا للأوربيين مدة طويلة بعد عصره..(١٩)
أما الصنف الثاني من الرحالة غيرالجغرافيين فقد تنوعت اهدافهم وتعددت أسماؤهم في الأدب الجغرافي العربي ولعل من أقدمهم التاجر سليمان السيرافي ، وهوتاجر من بلدة سيراف القديمة على ساحل الخليج العربي ، وكانت سيراف يومذاك (٨٥١ م) من الموانىء البحرية المهمة ، وقد خربتها الزلازل عام ٩٧٧ م ، وكان هذا التاجر يتجر بالبضائع الهندية والصينية وينتقل فيما بين البحر العربي وبحر الصين . ولم تصلنا معلوماته ومشاهداته بصورة مباشرة ، بل نقلها الينا شخص آخر كان معنيا بجمع المعلومات عن

بلدان الشرق الأقصى وهو أبو زيد السيرافي وزاد عليها ما نقله عن غيره وحدثه بها السياح الذين احتلوا سواحل الصين وقد عرفت الرحلة بإسم ((رحلة التاجر سليمان)). [٢٠] وقد اشتملت على مجموعة من المعارف والاخبار التي حصل عليها اثناء رحلته عبر البحر الشرقي الكبير أي المحيط الهندي ، وفيها تحدث عن ملاحة العرب البحرية من سيراف الى كانتون (أكبر المراكز التجارية الصينية حينئذ وكانت فيها جالية كبيرة جدا من التجار المسلمين وغير المسلمين) ، وعن عادات أهل الهند والصين .

وتتضح لنا أهمية رحلة التاجر سليمان ومبلغ فائدتها في الوقوف على اقدم المعارف والاوصاف الصادقة للطرق التجارية ولبعض العادات والنظم التى كانت سائدة يومذاك في بلاد الهند والصين . فهذه الرحلة تعتبر بحق اول ما كتب في العربية في وصف السواحل الهندية والصينية والطريق الملاحي اليها ، وهي مستند من أهم المستندات لفهم المعارف البحرية في القرون الوسطى ، وعن طريقها دخلت اقاليم الهند والصين في معارف الجغرافية العربية ، وبها تأثر الكثيرون من مؤلفي العرب في الجغرافية والتاريخ وعنها نقلوا ، ومن بيانها وبيان ما ألف من امثالها نشأت تدريجيا تلك الحكايات المضافة الى السندباد البحري في قصص ألف ليلة وليلة .
تميز صاحبها بانه بحار تاجر عبر البحر الهندي اكثر من مرة وقدم تقريره (مبنيا"على اساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه الى احاديث تاريخية وسواها كما اعتدنا ان نراه عند الجغرافيين العرب). [٢١] وهو اول مؤلف غير صيني يومىء الى الشاي وذلك حين يذكر ان ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب يشربه الصينيون في الماء الساخن ويباع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه ((ساخ)) .
وقد روى كذلك في مذكراته ان بصم اصابع اليد عوضا عن الامضاء كان امرا مألوفا في الصين مما يجعل لمذكراته هذه قيمة ليست تقتصر على المشتغلين بتاريخ الحضارة العربية فقط وانما تشمل جميع المشتغلين بتاريخ الحضارة الصينية كذلك. [٢٢]

وتأتي ((رحلة أحمد بن فضلان)) في المقدمة ايضا في ادب الرحلات العربي بالنظر لاهمية معلوماتها ، وهي رحلة مبكرة ذات طابع رسمي . فقد أوفد الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥ – ٣٢٠هـ / ٩٠٧ – ٩٣٢م)، احمد بن فضلان الى مملكة البلغار التى كانت تحتل حوض الفولغا الأدنى ،وذلك تلبية لطلب ملك الصقالبة (ألمس بن شلكي بلطوار) الذي سأل الخليفة ان يبعث اليه ((من يفقهه في الدين ، ويعرفه شعائر الإسلام ، ويبني له مسجدا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له فأجيب الى ما سأل من ذلك)). [٢٣] فأنفذ اليه بعثة كان فيها أحمد بن فضلان وانفصلت البعثة من بغداد سنة ٣٠٩هـ (٩٢١ م) متجهة الى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار حيث وصلت سنة ٣١٠هـ (٩٢٢ م) .

والبلغار تطلق عند العرب على بلاد الصقالبة ، وهم الروس ، وعلى الشعب نفسه وعلى عاصمتهم التى كانت تقع شرقي نهر الفولجا المسمى عند الجغرافيين الاسلاميين بـ (أتل). وقد ضمن ابن فضلان رحلته هذه صورة رائعة لهذا الشعب وحضارته وعاداته وتجاراته ، وعرض للظواهر الطبيعية في بلاده ، كقصر ما بين مغيب الشمس ومطلعها هناك ، وتعذر تحديد اوقات الصلاة ، فكتب يقول ، وقد صلى مغرب أول ليلة باتها في العاصمة : ((ودخلت انا وخياط كان للملك من اهل بغداد قبتي لنتحدث ، فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر اذان العشاء ، فاذا بالأذان فخرجنا من القبة وقد طلع الفجر، فقلت للمؤذن أي شيء أذنت ؟ قال : الفجر ، قلت فعشاء الأخيرة ؟ قال : نصليها مع المغرب ، قلت فالليل ؟ قال : كما ترى وقد كان أقصر من هذا ، وقد أخذ الآن في الطول ، وذكر انه منذ شهر ما نام الليل خوفا من ان تفوته صلاة الصبح ...)). [٢٤]
ولرحلة ابن فضلان هذه اهمية بالغة في تاريخ الرحلات ، فهي تعتبر بحق اول ما يعتمد عليه في وصف تلك النواحي المجهولة من تاريخ روسيا والبلغار في عهودهما القديمة ، اذ ان المؤلف يحرص فيها ان يرسم صورة

واضحة لشعوب تلك المنطقة من اسيا الوسطى ، ويصور عادات اهلها واخلاقهم وتقاليدهم في الحياة تصويرا دقيقا لا نراه في مصدر عربي او غربي غيرها . لذلك عني بها الروس ، وترجموها الى الروسية ، ونشروا عنها الكثير من الدراسات ، وجعلوها في عداد مصادرهم الثمينة والنادرة . ولم ينس فضلها العرب فعنها اخذ الكثيرون من مؤرخين وجغرافيين امثال الاصطخري والمسعودي وياقوت وبها استشهدوا، [٢٥] ولم تزل حتى اليوم كنزا وذخيرة من ذخائرنا العظيمة ، تفيد الجيل العربي وتقفه على ما كان من صلات في ما فعل اجدادنا في نصرة اوربا الشرقية في قديم الزمان ، وما قام بيننا وبين الروس والبلغار منذ الف عام من عهود ومعاهدات تشبه ما يقع اليوم حين انعكست الآية فوقفوا في قمة الحضارة الإنسانية ونحن ما نزال في أول الطريق.[٢٦]

اما ابو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي، فقد كان شاعرا وأديبا رحالة اتصل بالامير نصر بن احمد الساماني (٢٦١ – ٢٧٩ هـ / ٨٧٤ – ٨٩٢ م) ، واوفده هذا الأمير الى الصين حوالي سنة ٣٣١ هـ (٩٤٣ م) مع بعثة كان احد الأمراء الصينيين قد اوفدها الى البلاط الساماني ليخطب ابنة امير بخارى ، [٢٧] وقد اوفد ابو دلف ايضا في مهام رسمية اخرى يسرت له التجوال في بلاد فارس وتركستان والهند ، فسجل ملاحظاته ومشاهداته عن تلك الأقطار ، واهتم بشكل خاص في وصف المدن ومياهها ومعادنها ، كما تحدث أيضا عن عادات السكان . وترجع اهميةرحلات أبي دلف مسعر الى معلوماتها المبكرة عن الصين والهند ، وقد اقتبس بعض الجغرافيين والرحالة العرب شيئا من معلوماتها .

وتعتبر((رحلة ابن جبير)) (المتوفى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٦ م) من أبرز كتب الرحلات في الأدب الجغرافي العربي نظرا لدقة ملاحظاتها وصدق لهجتها وقيمة معلوماتها . وقد طاف ابن جبير في اقطار شمالي افريقيا ومصر، كما زار بلاد الشام والعراق وبعض جزر البحر المتوسط وسردينية بالإضافة الى بلاد الحجاز التى كانت هدفه الاساسي كيما يؤدي

فريضة الحج وقد سجل مذكراته اليومية(بالتأريخين الهجري والميلادي) خلال تلك الرحلة ، فصور فيها المعالم الجغرافية للبلدان التي زارها وتحدث عن اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وعرف ابوحامد الغرناطي بكتابه المعنون ((تحفة الأصحاب ونخبة الأحباب)) الذي اقتبس منه عدد من الجغرافيين العرب والمسلمين . وكان ابو حامد قد زار اقطار شمالي افريقيا وبلاد الشام والعراق وبعض جزر البحر المتوسط (صقلية) . لكن اهم اقسام رحلته هو الجزء المتعلق ببلاد الخزر وببلغار الفولغا، فقد اشتمل على بعض المعلومات الطريفة ، وقد حفل الكتاب بذكر العجائب والغرائب والخرافات ، وبأحكام واهية مما اضعف قيمته العلمية .

أما القاضي محمد بن عبد الله اللواتي (نسبة الى قبيلة لواتة) المشهور بابن بطوطة الطنجي (ولد سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م) فيمكن القول انه يأتي في مقدمة أولئك الرحالة جميعا، [٢٨] فهو اكثرهم طوافا في الآفاق ، واوفرهم نشاطا واستيعابا لاحوال الأمصار ، وان رحلته في أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) هي من اهم هذه الرحلات ولعلها خاتمتها ايضا.[٢٩] وقد أمضى ابن بطوطة ما يقرب من نصف عمره وهو يتجول بين البلدان ويختزن في ذاكرته المشاهد والصور والأخبار . فقد غادر موطنه طنجة وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وعاد اليه وقد شارف على الخمسين ، وقد أشار في بداية رحلته انه كان يهدف الى حج بيت الله الحرام ، لكن من الواضح ان رغبة قوية في السفر وحب الاستطلاع كانت تخفق بين جوانحه ، فظل يطوف بين البلدان طيلة ربع قرن .

وقد زار خلال رحلاته معظم اجزاء العالم القديم المعروف – عدا القسم الاوربي – مما حقق له تفوقا على جميع رحالة القرون الوسطى . ولم تتم تلك الرحلات عرضا ، بل عن عزم وتصميم كما اشار الى ذلك في ثنايا رحلته ، فقد كان يرغب في مشاهدة اكبر عدد ممكن من الاقطار .

وهكذا ساح في جزيرة العرب شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، فزار نجدا والحجاز والبحرين وُعمان وحضرموت واليمن ، وطوف في ارجاء العراق ومصر وبلاد الشام واقطارالمغرب ، وساحل افريقيا الشرقي ، وتجول في بلاد فارس والأناضول وأواسط آسيا وتركستان والحوض الادنى لنهر

الفولغا ، وكاد يشد الرحال الى شمالي سيبيريا لولا قلة الجدوى وعظم المؤونة. ثم اتجه الى اقطار الشرق الاقصى ، فأقام في بلاد الهند سنين عند سلطانها محمد بن تغلق في عاصمة ملكه (دهلي) التى وصفها بأنها كانت من أكبر عواصم الإسلام ، فاعتنى به السلطان وعينه قاضي المذهب المالكي ، الى ان غضب عليه في احدى المرات وكاد ان يودي بحياته ، فأراد الله به خيرا ونجاه من بطش ذلك السلطان الذي بعثه بعد ذلك الى ملك الصين سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) في سفارة له . وفي طريقه الى الصين زار جزر الساحل الجنوبي الغربي للهند ، ثم ذهب الى جزر ذيبة المهل (جزر المالديف) ، حيث عين بها قاضيا مدة سنة ونصف . ثم تنقل بين جزر الهند الشرقية ، وزار سرنديب والملايو ، ثم رحل الى جنوبي الصين ، وربما تقدم في جولته حتى شمالي الصين، [٣٠] وما كتبه في رحلته ((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار)) عن الصين والهند والروسية والسودان ومصر وفلسطين والعراق ونجد وفارس وغيرها ، يعد غاية في النفاسة والفائدةوالامتاع. [٣١]

ولما عاد الى موطنه بعد غيبة قاربت الثلاثين عاما ، حنّ الى السفر ثانية، فقام برحلة قصيرة الى الاندلس ، ولم يكد يستقر في فاس بعض الوقت حتى عبر الصحراء الكبرى متجها الى السودان الغربي في مهمة رسمية، ولبث يتجول في تلك الانحاء لمدة عامين. واستقر به المقام اخيرا في فاس عاصمة الدولة المرينية في كنف السلطان ابي عنان فارس المريني (من سلاطين بني مرين) ، وكان ذلك في سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) وعمره احدى وخمسون سنة ، وراح يقص على الناس اخبار رحلاته الطويلة وما صادف خلالها من عجائب وغرائب وما عرف من الأشخاص . ومنذ البداية اثارت تلك الاخبار والحكايات الجدل بين سامعيها بين مصدق ومكذب ، ورانت الشكوك حول ما يروي من حكايات،[٣٢] خاصة عما حكاه عن الهند وسلطانها . واليوم ونحن في القرن الخامس عشر الهجري ولدينا كل الإمكانيات لمتابعة وتحقيق ما قاله إبن بطوطة ، نجد انه كان الرحالة الأمين الصادق في كل ما أخبر به. وكان لأمانته ، كثيرا ما يأتي بأخبار يتحدث فيها عن نفسه بدون حرج ، متحريا ان ينقل مشاهداته وانطباعاته بكل دقة.[٣٣]

وقد قدرت المسافات التي قطعها في اسفاره في ثلاثين عاما بخمسة وسبعين الف ميل ، وهي مسافة لا يظن ان رحالة غيره قد قطعها قبل استخدام البخار في وسائل السفر.(٣٤)

أملى ابن بطوطة رحلته على ابن جزي (٣٥) من ذاكرته ، ولم يكتبها ابان سفره وترحاله. ورغم هذا فاننا لم نجد في رحلته من الاخطاء الا القليل ، لدرجة انه يمكننا تتبع رحلته على خرائط اليوم . غير انه كثيرا ما جمع عدة رحلات قام بها في فترات متباعدة وذكرها كرحلة واحدة . فمثلا من غير المحتمل ان يكون قد زار مدن ضفاف النيل في رحلة واحدة في المدة القصيرة التي ذكرها . وكذلك عندما تعذر عليه السفر الى الحجاز على الدرب المصري ، اختار الذهاب في نفس السنه على الدرب الشامي ، فليس معقولا ان يكون في تلك الرحلة نفسها قد زار جلّ مدن الشام بما فيها حلب واللاذقية وطرابلس وحمص وحماة .

اما عن بلاد الروم (تركيا اليوم) فانه يخبرنا عن زيارته لمدن غرب البلاد بتتابع ، ثم يقفز قفزة واحدة الى مسافات شاسعة في اقصى شرق البلاد ، كل هذا في ايام معدودات . ولكن هذه الهفوات ليست بذات اهمية ولا تدعونا الى الإرتياب في صدق ابن بطوطة . فلقد تتبع بعض المستشرقين رحلته وحققوها مقارنة بمصادر اخرى ، فوجدوا ان ما ذكره ابن بطوطة مطابق لتلك المصادر مما لا يجعل رحلته تقرأ لأسلوبها الجذاب فحسب بل لقيمتها التأريخية كذلك. (٣٦)

لقد كان هؤلاء الرحالة رجالا كثيري الجوانب يتمتعون بحاسة قوية في الملاحظة ، وكم تكبدوا من مشاق في سبيل الحصول على معلومات متعددة الالوان،ومن اجل لقاء الباحثين المشهورين. وبواسطة جهاز البريد ومد شبكة طرق المواصلات - مما يتبع عادة تاسيس الإمبراطوريات الكبرى – تولد دافع لظهور كتب عدة تعالج جانب (المسالك والممالك) ، وبين هذه المجموعة مؤلفات جغرافية شهيرة لابن خرداذبة ، والاصطخري ، وابن حوقل .

ويتبين لنا من سيرة من ذكرنا ومن لم نذكر من هؤلاء الرحالة ، انهم قد امضوا السنين وهم يجوبون العالم الاسلامي ، ومنهم من زار المناطق النائية غير الإسلامية ، وكل هؤلاء اودعوا خلاصة تجاربهم في قصص رحلاتهم

حيث تنتشر المعلومات الجغرافية القيمة كثيرا بين ثناياها ومعظم هؤلاء الرحالة زاروا الاماكن المقدسة ، ومع ذلك فقد كان الحج يأتي احيانا كثيرة عرضا.

واذ كان ابن حوقل ، والمسعودي ، والمقدسي، والإدريسي ، وابن بطوطة ، وابو العباس النباتي الاشبيلي ، وابن البيطار المالقي – وكلاهما من الباحثين المكتشفين في علم النبات – هم من اشهر الرحالة المسلمين في البر ، فإن للبحر ايضا رحالته من المسلمين واشهرهم : سليمان التاجر ، وابن ماجد ، وقد خلّف هؤلاء واولئك من ورائهم مؤلفات جغرافية لها أهمية بالغة المدى.

وهناك لون اخر من الكتابة الجغرافية يطالعنا بوصف تفصيلي لاقاليم خاصة معينة ، ومن طلائع المؤلفات في هذا الباب،مؤلف الخطيب البغدادي (٣٩٢ – ٤٦٣ هـ / ١٠٠١ – ١٠٧٠ م) ((تاريخ بغداد او مدينة السلام)) وهو نوع من الدراسة الطوبوغرافية لمدينة بغداد ، واعقبت ذلك مؤلفات عدة جديرة بالعناية ، منها وصف ابن جامع لمدينة الاسكندرية ومناخها ، وهذه المؤلفات تعتبر من اهم الكتب الطوبوغرافية في العصور الوسطى. (٣٧)

اذن كانت الرحلة عنصرا قويا في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهرة ، فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي ، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين ، ورحل الناس في طلب العلم من قطر الى اخر ، فقد كان العلم منتشرة مراكزه في انحاء العالم الإسلامي و طلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه مما يحملنا على احترامهم واجلالهم ، ورحل القوم في سبيل الإتجار، فقد كانت الاسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة بعضها ببعض كل الارتباط ، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلعهم الى حيث يرجون الربح الوفير . اضف الى كل ذلك رحلة الرسل المترددين بين الملوك والامراء، والمغامرين الواجدين في الرحيل متعه خاصة، والساعين في سبيل الرزق اذا ضاقت بهم ارضهم، وجوابي الآفاق. كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب المسلمون، وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الإسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادىء الأمر . فلما ذهبت الوحدة السياسية، بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة، وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل

السلاطين وحملة البضائع فاحتفظوا بالصلة ، بل لعل الرحلة كانت اقوى في عهد التفرق السياسي منها قبلا لاعتياد العالم الإسلامي درجة من المعيشة، ونوعا من الحياة، ولونا من التفكير تحتم على افراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والأدبي .

وقد دوّن كثيرمن رحالي المسلمين اخبار اسفارهم وتنقلهم ، فذكروا المدن التي هبطوها والمسافات التي اجتازوها ، والصعوبات التي تغلبوا عليها ، ووصفوا البلاد وزرعها ، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها ،وأتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيب من عاداتهم وعابوا ما فيهم من ضعف . وهذه اللفتات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه من الكاتب الجغرافي ، فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ويحاول ان يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها ، اما الرحالة فينقل ما يشاهد و تكون صورته جزئية ولكنها ثمينة في هذه الناحية. (٣٨)

والذي لا ريب فيه ان اهمية تلك الرحلات تكمن في كونها العامل الرئيسي وراء معرفة العرب بتلك المناطق التي وطأتها اقدامهم ، حيث إطلعوا بانفسهم عليها ، وتبينوا عن كثب كل ما تمتعت به تلك البلدان من مميزات وخصائص جغرافية وأخبار تاريخية . ومما يضفي على تلك الرحلات أهمية خاصة هو ان المسلمين كانوا اسبق الأقوام في الوصول الى شتى الأماكن الدانية منها والقاصية ، والتي تعرف اليوم بأسماء : الشرق الأوسط ، والشرق الأقصى ،و جنوب شرق آسيا وافريقيا ... وما إليها اضافة الى بلاد العرب الأصلية ، وكان الجغرافيون المسلمون هم المرجع الرئيسي لمعارف ذلك جميعا . ولا يخفى على احد ما كان لتلك الرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون من أثر كبير في ازدهار علم الجغرافية وبخاصة تلك الرحلات التى قام بها أولئك الرحالة الذين وصلت الينا مؤلفاتهم .

نعم لقد اسهمت الرحلات العلمية التى قام بها الجغرافيون المسلمون في زيادة المعلومات الجغرافية ، وصححت آراء خاطئة وأخطاء شائعة ، واستطاع الجغرافيون الفلكيون أمثال أبي الريحان محمد بن احمد الخوارزمي البيروني (مؤلف الاثار الباقية عن القرون الخالية والمتوفى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٩٨ م) ان يتقدموا خطوات عما وصل اليه الأقدمون ،

فاستطاعوا ان يحددوا بدقة متناهية الموقع الجغرافي للبلدان الهامة بالنسبة لخطوط الطول والعرض .

وبينما كان الغرب عاكفا خلف اسوار الأديرة يبحث عن الجغرافية فيما كتبه الأقدمون ، وما وصلوا اليه من نظريات أو استنتاجات ، كان عالم كالمقدسي مثلا يجوب الأرض طولا وعرضا ليكتب كتابا في جغرافية الارض وشعوبها ، اتخذ مادته من تجاربه و مشاهداته الخاصة فقط . وفي العالم العربي على خلاف ما كان عليه الحال في الغرب ، سادت التعابير التالية : لقد لاحظت ، لقد شاهدت بعيني ، وألف الناس أن يقرأوا مثل هذا التقرير.(٣٩)

وفي ميدان البحث ، بدأ العرب بوضع تقويم البلدان قبل ان يبدأوا بترجمة كتب اليونان ، اذ كانت الداعية اليها متوافرة ، وعلمهم بالممالك والمسالك كانوا قد حذقوه بالاسفار وأنفذوا اعمارهم في تحصيله بالدرس والاختبار . فوضع أئمة الادب واللغة ورواد الاخبار والاشعار تصانيف فيه ضمنوها ذكر البوادي والقفار والمنازل والمناهل والجبال والأماكن العربية الواردة في اشعار العرب واخبارهم .ولا شك في ان هذا الضرب من كتب تقويم البلدان عربي خالص تفردوا بوضعه وتنزه من شوائب الاحتذاء والاقتباس لأنهم انما وصفوا فيه مواطن هم اهلها وعيّنوا مواضع هم روادها و ((اهل مكة أدرى بشعابها)) .

ثم خطا التأليف الجغرافي عند المسلمين خطوته العالمية ، فطفق الجغرافيون في القرن الثالث الهجري وما بعده يؤلفون في تقويم البلدان ، ويصفون اجزاء امبراطوريتهم وما يجاورها من الأقاليم وصفا علميا منظما قائما على المشاهدة والدراسة العملية ، فعينوا حدود الأرض وتقاسيم الممالك، ووصفوا البلدان وملامحها الخاصة والمسالك والجبال والبحار والانهار والمعادن والآثار، و ضبطوا المسافات بين الامصار بحساب الاميال ضبطا دقيقا كل الدقة ، واحصوا مقادير الجبايات ومبالغ الخراج ، ودونوا الى جانب ذلك اخبار الفتح ، وشرحوا احوال الشعوب والاجناس واكلهم وشربهم ولباسهم و تجاراتهم وصادراتهم وارداتهم وما يمتاز به كل شعب من الخصائص النفسية والبدنية والاجتماعية والعلمية والادبية ... الى غير ذلك مما اوفوا به على الغاية من الاستقصاء والاستيعاب والتحقيق

والتدقيق ، واشتملت مؤلفاتهم على وثائق عظيمة الشان في تاريخ الانسانية و حقائق بليغة الأثر في نماء ضروب المعرفة لا مندوحة لكل باحث – في التاريخ التجاري او التاريخ الاقتصادي او نظام السياسة والحكم في الشعوب الإسلامية والامم التي اتصلت بها – من الوقوف عليها والاستنارة بها ، والا كانت بحوثهم خالية الوفاض تعوزها المادة والحيوية والقوة .

كان عمل هؤلاء المؤلفين في الجغرافية العامة امتدادا لعمل المؤلفين في الجغرافية الخاصة الذين مهدوا السبيل في التاليف الجغرافي عند المسلمين ابتداء" وابتداعا ، لا نقلا ولا محاكاة لأمة من الأمم . وقد قضى بهذا الإمتداد اتساع رقعة الإمبراطورية الإسلامية ، ووجوب حمايتها ،وما يتعين على الدولة من احصاء جبايتها وخراجها ، وتيسير طرق البريد ، وتحديد المسالك وابعادها وجهاتها للسفارة والتجارة والجيوش. فلم يكن بد لعلماء الملّة من التأليف في هذا الباب والتوسع فيه مسايرة للحاجة ، وهو عمل لا يتيسر امتلاك ناصيته الا بالرحلات والكشف والدراسات العملية ، لذلك كان الجغرافيون الذين نبغوا في القرنين الثالث والرابع للهجرة وفي قرون اخرى ايضا ، كلهم ممن تمرسوا بالأسفار ، وركبوا البحار ، وجابوا الأقطار شرقا وغربا وشمالا وجنوبا امثال : ابن خرداذبة مؤلف كتاب ((المسالك والممالك)) ، واليعقوبي مؤلف كتاب ((البلدان)) ، والإصطخري الكرخي مؤلف كتاب((الأقاليم)) ، وابن حوقل البغدادي مؤلف كتاب((صورة الأرض)) أو ((المسالك والممالك)) والمقدسي مؤلف كتاب ((احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)) ، والمسعودي مؤلف ((أخبار الزمان)) و ((مروج الذهب))
و ((الأوسط)) و ((التنبيه والأشراف)) وغيرهم .

ثم من جاء بعدهم في القرون التالية واعتمدوا في تآليفهم الجغرافية على منهلين : كتب من سبقهم واسفارهم و دراساتهم العملية وهم كالشريف محمد بن محمد الإدريسي مؤلف ((نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)) الذي فزع اليه روجر الثاني النورمندي ملك صقلية وجنوبي ايطاليا لرسم ((الخارطة)) العالمية وتدوين شروحها ، وعلي بن ابي بكر بن علي الهروي الموصلي الذي قال عنه ابن خلكان: ((لم يترك برا ولا بحرا ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ، ولم يصل الى

موضع الا كتب خطه في حائطه ، وقد سار ذكره بذلك حتى عرف باسم الهروي السائح)). [٤٠] وهو مؤلف كتاب ((منازل الأرض ذات الطول والعرض)) ، وياقوت الحموي البغدادي ، المؤلف الجغرافي العظيم الذي يأتي في مقدمة كتبه كتابه الرائع ((معجم البلدان)) الممتاز بترتيبه على حروف الهجاء وبدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب ، وقد حاز هذا الكتاب اعجاب كبار المستشرقين حتى قال فيه المستشرق الفرنسي المشهور(كارادي فوكس cara de vaux):

(انه من المؤلفات التي يحق للاسلام ان يفخر بها كل الفخر) .

وضع ياقوت معجمه الجغرافي العظيم هذا ، ولم يكن للجغرافيين الاوربيين معجم جغرافي على نمطه ، وكان ياقوت قد فرغ من معجمه في سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) ... الى غير هؤلاء العظماء الذين ألفوا في الجغرافية العامة ، على أن ما كتبوه في هذا الباب هو من مشاهداتهم أو من مشاهداتهم ومن النقل عمن سبقوهم معا. [٤١]

وهكذا سار الجغرافيون المسلمون خطوات عظيمة الى حد ان مؤلفاتهم قد عنيت بالجانب الثقافي والامور الاجتماعية ، ويبدو واضحا فيها تقرير خطوط العرض والطول لأماكن عديدة فضلا عن تلك المادة الوفيرة في مسالك السير والطرق والمراحل . واذا اردنا ان نستعمل ما يؤدي هذا المعنى بالاصطلاح العصري قلنا : ان هؤلاء الجغرافيين لا يحسبون في عداد اهل الجغرافية التقليدية المجردة .[٤٢]

واذا مادققنا النظرفي ما ألف في الجغرافية الإسلاميةوبخاصة تلك التآليف التي عرفت ابان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في القرنين الثالث والرابع للهجرة(التاسع والعاشر للميلاد) لوجدنا أن أوجه التباين بينها علامة بارزة تشترك فيها معظم المصنفات التي كتبت ابان الفترة المذكورة، ولعل منهج البحث الذي سار عليه الجغرافيون المسلمون هو في مقدمة تلك الأوجه ، حيث نرى أن كل جغرافي يحاول ان يضفي على منهجه صفة التجديد لا التقليد على الرغم من اعتماد البعض على من سبقهم في هذا المضمار ، حيث نقل الخلف عن السلف جملة من الموضوعات في كثير من المناسبات ، وقد اعترف البعض بهذا النقل في حين تجاهل البعض الآخرذكر هذه الحقيقة .

وفي هذا المجال يمكننا اعتبار الاصطخري (المتوفى سنة ٣٤١ هـ/ ٩٥٢م) في كتابه ((مسالك الممالك)) وهو معول على كتاب ((صور الاقاليم)) لأبي زيد احمد بن سهل البلخي (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) نموذجا لما ذكرنا آنفا في هذا السياق . اذ نجد ان هناك اكثر من اشارة عند الإصطخري نستدل منها على الجديد في الاسلوب الذي اعتمده في تصنيف مؤلفه هذا وبخاصة فيما يتعلق بتحرره من منهج اليونان الجغرافي في تقسيم الاقاليم . وبهذا الصدد يذكر الاصطخري : ((... ولم اقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة تحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن وما في اضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والانهار ، وما يحتاج الى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الاقليم ...)). (٤٣)

وهنا ايضا يمكننا القول أن طرفا" من نزعة الإصطخري الإستقلالية هذه والتي اعتمدها اسلوبا في منهج بحثه هذا ترجع الى اعتماده على كتاب ((صور الأقاليم)) للبلخي الذي سبق الإصطخري في تحرره من الأثر اليوناني في هذا الباب . وكان الإصطخري دقيقا في بحثه لما يسمى اليوم بـ((الجغرافية الإقليمية)) الذي اعتمد فيه الى حد كبير على أهم قسم من أقسام الجغرافية في هذا الموضوع ونعني به جغرافية ((رسم الخرائط)).

ويعتبر الإصطخري شريكا لإبن حوقل (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) وصاحب كتاب ((المسالك والممالك والمفاوز والمهالك أو كتاب صورة الارض)) في الأسس التي استند اليها كل منهما في تصنيفه لمؤلفه فيما يتعلق بجغرافية البلاد العربية ، حيث نجد ان ما يذكره الإصطخري في اسباب بحثه لهذا الموضوع في مقدمة مؤلفه يتكرر ثانية – وهو ما سنراه بعد قليل – في منهج ابن حوقل . وقد سار الإصطخري في حساباته لقياس خطوط الطول والعرض في جغرافيته الإقليمية على اساس نظام: المرحلة والشهر وهو امر يتقاسمه معظم من بحث في هذا الميدان.(٤٤) وبصفة عامة يمكننا القول ان ما رسمه الإصطخري لمؤلفه إنما هو أمر له دلالته في منهج البحث الجغرافي عند المسلمين .

وعلى الرغم من التقدم المتواضع الذي طرأ على علم الجغرافية عند المسلمين الا اننا نجد ان البعض ممن خاض في هذا المضمار لم ترقه مصنفات الجغرافيين المسلمين الذين كتبوا في هذا الموضوع الأمر الذي كان دافعا رئيسيا وراء وضع مؤلفات جديدة في هذا المجال وينطبق قولنا هذا بصفة خاصة على الجغرافي أبي القاسم محمد الحوقلي في كتابه ((المسالك والممالك والمفاوز و المهالك أو كتاب صورة الأرض)) ، حيث يبين لنا بنفسه سبب تأليفه لكتابه هذا فيقول : ((وكان مما حضّني على تأليفه وحثّني على تصنيفه وجذبني الى رسمه ، إني لم ازل في حال الصبوة شغفا بقراءة كتب المسالك متطلعا الى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق ، وتباينهم في المذاهب والطرائق وكمية وقوع ذلك في الهمم والرسوم والمعارف والعلوم والخصوص والعموم ، وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم أقرأ في المسالك كتابا مقنعا ، وما رأيت فيها رسما متبعا ، فدعاني الى تأليف هذا الكتاب ، واستنطاقي فيه وجوها" من القول والخطاب ...)).[٤٥]

ويعتمد إبن حوقل في مصنفه هذا على المشاهدات ، فالمشاهدة والمعرفة الشخصية المباشرة كانت خير عون له في تصنيف كتابه حيث يقول : ((واعانني على تأليفه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني... الى ان سلكت وجه الارض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها)).[٤٦]

والجدير بالذكر هنا ان العامل الذي ساعد الحوقلي على تاليف كتابه هذا هو ذات العامل الذي ساعد غيره من الجغرافيين المسلمين .

وكانت رحلات ابن حوقل واسفاره جلّها بريّة ، وهو من الجغرافيين الذين كانوا يستخدمون الأيام كعامل رئيسي في قياس خطوط الطول والعرض بالنسبة للمنطقة المراد تحديدها . كما ان ابن حوقل من الجغرافيين الذين بحثوا في مواضيع متشعبة ومختلفة ، فقد تناول بالبحث : جغرافية ديار العرب ، وبحر الروم ، والمغرب ، وصقلية ، ومصر ، والشام ، والجزيرة، والعراق ، وخوزستان ، وفارس ، والسند ، وارمينية ، واذربيجان ، والديلم، وطبرستان ، وبحر الخزر ، وسجستان ، وخراسان وما وراء النهر ... وان من يمعن النظر في كتاب ابن حوقل هذا يرى انه قد بحث في ((الجغرافية الطبيعية)) و ((جغرافية رسم الخرائط))و ((الجغرافية السياسية)) و

((الجغرافية الاقتصادية)) إذا جاز لنا أن نعّبر عن مفاهيمه تلك بالمفهوم الحديث للجغرافية واقسامها في وقتنا الحاضر .
ولم يكن التصنيف عند ابن حوقل كيفما كان أو هو محض تجميع فقط ، بل على العكس من ذلك فقد كانت هناك ضوابط محددة تتحكم حتى في تبويب مادة كتابه هذا ، ونشير بهذا المعنى الى ما يقوله في بداية بحثه لديار العرب .
ذكر ابن حوقل : (فابتدات بديار العرب لأن القبلة بها ومكة فيها وهي أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكناها غيرهم .[٤٧]
وعلى الرغم مما اوردناه آنفا على لسان ابن حوقل هذا من عدم ارتياحه للمصنفات السابقة له في هذا الباب ، فاننا نجد اشارة في مقدمة مؤلفه هذا تدلنا على اعتماد ابن حوقل في مادة كتابه على كتاب ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر ولنقرأ : ((هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك وذكر الاقاليم والبلدان على مر الدهور والازمان وطبائع اهلها وخواص البلاد في نفسها ... تأليف ابي القاسم بن حوقل ... جمع الامام العالم ابو القاسم محمد الحوقلي البغدادي ، معولا فيما جمعه على كتاب الامام العالم ابي القاسم محمد بن خرداذبة وقدامة بن جعفر الكاتب).[٤٨]
ويعتبر ابن الفقيه الهمداني((مؤلف كتاب مختصركتاب البلدان والمتوفى سنة ٣٦٥ هـ / ٨٧٨ م) أحد الجغرافيين الذين سلكوا السبيل ذاته لمن سبقهم في استخدام الايام والسنين كمقاييس للطول والعرض ،والفراسخ لقياس المسافات ... وكتاب ابن الفقيه هذا هو باختصار كتاب يبحث في تأريخ المناطق التي يدرسها جغرافيا .
ويعتبرشمس الدين ابوعبد الله محمد بن احمد البشاري المقدسي(المتوفى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) ان خطة بحثه في كتابه الموسوم بـ ((أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم)) تختلف في اسلوبها عما ادركه من خطط للمصنفات الجغرافية السابقه له . فهو يقول في حديثه عن الاسباب التي دفعته الى وضع هذا الكتاب :((اما بعد فانه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم ، ولا تنقطع اخبارهم . فأحببت أن اتبع سنتهم وأقفوا سننهم واقيم علما احيي به ذكري ، ونفعا للخلق ارضي به ربي ... ووجدت

العلماء قد سبقوا الى العلوم فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعه الاخلاف ، فشرحوا كلامهم و اختصروه ، فرأيت ان اقصد علما قد اغفلوه وانفرد بفن لم يذكروه الا على الاخلال وهو ذكر الاقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والانهار ، ووصف امصارها المشهورة ، ومدنها المذكورة ، ومنازلها المسلوكة ،وطرقها المستعملة ، وعناصر العقاقير والالات ، ومعادن الحمل والتجارات ... واختلاف اهل البلدان في كلامهم واصواتهم والسنتهم والوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم واوزانهم ونقودهم و صروفهم ، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ، وما يحمل عندهم واليهم ، وذكر مواضع الاخطار في المفازات، وعدد المنازل في المسافات ، وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال ، ومواضع الضيق والجدب ، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والممالك والحدود...)).[٤٩]

ويتبين لنا من مقدمة المقدسي التي اوضح فيها منهجه في البحث انه اعتمد على المشاهدة الميدانية ، وان التنقل والارتحال كانا رائديه في سبيل تحقيق هدفه الذي اوضحه – أول ما أوضحه – في اول سبب دفعه الى تصنيف مؤلفه هذا ، فهو يقول:((... ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى اتقنتها،ودوراني على التخوم حتى حررتها،وتنقلي الى الأجناد حتى عرفتها...)).[٥٠]

ثم يعرض لنا المقدسي القواعد التي اسس الكتاب عليها فيقول : ((إعلم اني اسست هذا الكتاب على قواعد محكمة ، واسندته بدعائم قوية ، وتحريت جهدي الصواب ... فأعلى قواعده وأرصف بنيانه ما شهدته وعقلته ، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان ، ومن قواعده ايضا وأركانه ، ما استعنت به على تبيانه سؤال ذوي العقول من الناس ، ومن لم اعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والاعمال في الاطراف التي بعدت عنها ، ولم يتقدر لي الوصول اليها ، فما وقع عليّ اتفاقهم اثبته ، وما اختلفوا فيه نبذته ، وما لم يكن لي بد من الوصول اليه والوقوف عليه قصدته ، وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي اسندته الى الذي ذكره ... وكل من سبقنا الى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها ولا طلب الفوائد التي اردتها)).[٥١]

ونحن نرى ان اسلوب المقدسي هذا هو غاية ما يرجى من أي باحث عقد العزم على تصنيف مؤلف في هذا الميدان .

ويمكننا أن نستدل من قول المقدسي ذاته أنه اضافة الى اعتماده على التنقل والارتحال كوسيلة رئيسية لجمع مادة بحثه فانه يمكن ان تؤخذ مادته على اساس انها افضل مادة قد دونت في هذا الباب وذلك بسبب ما عرف عن المقدسي من حرص شديد في تمحيصه وتدقيقه لكل ما حصل عليه أو وقف عنده مما جاء في مادة بحثه هذا . وبهذا المعنى يقول المقدسي عن نفسه : ((وقد ذكرنا ما رأيناه وحكينا ما سمعناه ، فما صح عندنا بالمعاينة واخبار التواتر أرسلنا به القول ،وما شككنا فيه أو كان من طريق الآحاد اسندناه الى الذي منه سمعناه)).[٥٢] والواقع ان كتاب المقدسي هذا هو من اكثر كتب الجغرافية التي صنفها المسلمون في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) اعتمادا على التجربة والمشاهدة والملاحظة والاعتبار ، ووقوف المؤلف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة دونها في كتابه الأمر الذي يكسبه اهمية خاصة تفتقر اليها المصنفات الاخرى في هذا المضمار لابتعادها عن مقومات منهج البحث العلمي والمتوافرة عند صاحبنا المقدسي في مؤلفه الآنف الذكر، ومن هنا يمكننا اعتبار الكتاب خير مثال للكتاب العلمي المنهجي واسلوبه الدقيق في الترتيب والتنظيم والتبويب والتقسيم . ومع ما تقدم فان اسلوب المقدسي هذا لم يكن خاصا به ، بل شاركه فيه البعض من الجغرافيين المسلمين وكان من ابرزهم ابن حوقل .

ونتيجة لكثرة زيارات المقدسي لمختلف الاقطار آنذاك فقد كان يسمى باسماء مختلفة تبعا لتلك البلدان التي كان يقيم بها . وبهذا الصدد يذكر المقدسي: ((ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها مثل: مقدسي (ولد في بيت المقدس)، وفلسطيني، ومصري، ومغربي، وخراساني، وفقيه، وصوفي، وولي، وعابد، وزاهد، وسياح، وواراق... وغير ذلك لاختلاف البلدان التي حللتها ، وكثرة المواضع التي دخلتها)).[٥٣]

وقد دلل المقدسي على كروية الارض بتعابير طريفة منها قوله : ((فأما الأرض فانها كالكرة موضوعة جوف الفلك ، كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الارض)).[٥٤]

ويمتاز المقدسي عن غيره من الجغرافيين المسلمين باستخدامه مقاييس جديدة في حساب الطول والعرض للاقطار والمسافات مثل : المرحلة والميل

اضافة الى استعمال ما اعتاد عليه الجغرافيون الاخرون من مقاييس في هذا الشأن كالفرسخ واليوم والشهر .
ومما يلاحظ على المقدسي لتأكيد الجديد في منهجه وقد أبلغ قراءه به أنّه ((لم ينقل عن أحد ولكنه خبر ودوّن وكتب)) ثم نقده لغيره من الجغرافيين الذين برزوا في هذا المجال حيث ضمن المقدسي مؤلفه نقدا علميا صريحا لأبرز من صنّف في هذا المجال .
وهنا نلحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد ان يكون البحث مبنيا دائما على الدرس والاختبار ، منظما مبوبا وافيا بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل. (٥٥)

ومن الطريف هنا أن نورد نقد المقدسي للبلخي والذي يقول فيه : ((...وأما أبو زيد البلخي فانه قصد بكتابة الامثلة وصورة الارض بعد ما قسمها على عشرين جزءا" ، ثم شرح كل مثال واختصر ، ولم يذكر الاسباب المفيدة ، ولا أوضح الامور النافعة في التفصيل والترتيب ، وترك كثيرا من امهات المدن فلم يذكرها ، وما دوخ البلدان ولا وطىء الاعمال...)).(٥٦)
ولم يسلم ابن الفقيه الهمداني من نقد المقدسي لمنهجه حيث يذكر عنه : ((وأما ابن الفقيه الهمداني فانه سلك طريقة اخرى ، ولم يذكر الا المدائن العظمى ، ولم يرتب الكور والاجناد وادخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم ، مرة يزهد في الدنيا وتارة يرغب فيها ، ودفعة يبكي وحينا يضحك ويلهي)) .(٥٧)
أما ابن خرداذبة فيرى فيه المقدسي رأيا آخر اذ يقول : ((وأما ابن خرداذبة فان كتابه مختصرجدا ،ولايحصل منه كثيرفائدة)) .(٥٨)
وينتقد المقدسي مرة اخرى منهج غيره لخلوه من عناصر المشاهدة الشخصية والحس الذي كان احد الميزات الواضحة التي تميزت بها الكتابة الجغرافية ابتداء من القرن الثالث وحتى القرن الثامن الهجري . وفي رأينا ان عنصر المشاهدة الشخصية هو من اهم العناصر التي يجب ان يركن اليها في هذا المجال ، ويشيد المقدسي من جانبه بمؤلفه وذلك لاستناده على اهم ركائز منهج البحث العلمي الذي اتخذه المسلمون سبيلا لهم في جميع دراساتهم آنذاك . وبهذا الشأن يذكر المقدسي : ((اعلم ان جماعة من اهل

العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب وان كانت مختلة ، غير ان اكثرها بل كلها سماع لهم . ونحن فلم يبق اقليم الاو قد دخلناه ، واقل سبب الا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة اقسام : أحدها ما عايناه ، والثاني ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره)). (٥٩)

ويدلل المقدسي على أهمية اسلوبه في منهج بحثه فيقول: ((... وليس هو علم يطرد بالقياس فيتساوى،وانما يدرك بالمعاينة والخبر فينهى،وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان)). (٦٠)

ومن ناحية اخرى نلاحظ ان هناك وجه شبه بين المقدسي وابن حوقل في مضمار العالم الاسلامي تاريخيا وجغرافيا . فاذا كان ابن حوقل قد ابتدأ في بحثه بالكلام عن بلاد الاسلام فاننا نرى أن المقدسي يقتصر على بلاد العالم الاسلامي . فهو يقول بهذا الصدد : ((ولم نذكر الا مملكة الاسلام حسب ، ولم نتكلف ممالك الكفار لاننا لم ندخلها ، ولم نر فائدة من ذكرها ، بل قد ذكرنا مواضع المسلمين منها ...)). (٦١)

مما تقدم يمكن القول بأن هذه الفترة ، أي القرن الرابع الهجري تمثل دور النضج في الجغرافية العربية وقد استمر هذا فيما بعد لمدة لا يستهان بها . ونلاحظ هنا ان هناك اربعة اتجاهات أو تطورات في التأليف الجغرافي العربي :

الأول:العناية الشديدة بأقطارالعالم الإسلامي على ما يبدو من كتابات البلخي والإصطخري. (٦٢)، وابن حوقل. (٦٣)، والمقدسي . (٦٤).

الثاني : نوع من التخصص في قطر واحد ، فالهمداني وضع ((صفة جزيرة العرب)) والبيروني كتب عن الهند ((تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)) ، وابن فضلان وصف بلغار الفولغا .

والاتجاه الثالث هو وضع المعاجم الجغرافية وهذا شيء بدأ في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). فالبكري (٤٣٢–٤٨٧هـ / ١٠٤٠ – ١٠٩٤م) وصف معجمه بقوله: ((هذا معجم ما استعجم ، ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والاخبار والتواريخ والاشعار من المنازل والديار

والقرى والامصار والجبال والاثار والمياه والابار والدارات منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة)).[٦٥]

وكتاب ياقوت الحموي (٥٧٥ – ٦٢٦ هـ / ١١٧٩ – ١٢٢٩ م) ((معجم البلدان)) خزانة ادب وعلم واخبار وتاريخ وجغرافية، [٦٦] ومثل للعمل المنظم وللنتاج الذي يستطيعه رجل صنع نفسه بنفسه. [٦٧]

ونلاحظ الاتجاه الرابع في هذه الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) من نوع ((نهاية الارب في فنون الادب)) لشهاب الدين احمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويري (٦٧٧ – ٧٣٢ هـ / ١٢٧٨ – ١٣٣١ م) ، و((صبح الأعشى في صناعة الانشا)) لشهاب الدين احمد القلقشندي (٧٥٦ – ٨٢١ هـ / ١٣٥٥ – ١٤١٨ م) ،

و ((مسالك الابصار في ممالك الامصار)) لشهاب الدين بن فضل الله العمري (٧٠٠ – ٧٤٨ هـ /١ ١٣٠ – ١٣٤٧ م) وغيرها . هذه الكتب اعتنت بما يصح ان يسمى : الجغرافية الاجتماعية السياسية الاقتصادية ، أي بشؤون العمران عامة . والذي يقرأ بعض فصول هذه الموسوعات يرى الى أي حد اهتم المؤلفون بجمع معلوماتهم ومتابعة التطور في الاقطار المختلفة على ترتيب زمني. [٦٨]

كذلك فقد جمعت هذه المصنفات بين الجغرافية والتاريخ أو ما يسمى اليوم بـ ((الجغرافية التاريخية)) الأمر الذي زاد من اهمية دورها في بيان احوال تلك البلدان الجغرافية والتاريخية ، فكانت بذلك سببا رئيسيا ساعد على قيام الكثير من الرحلات التي قام بها هذه المرة البعض من أهالي القارة الأوربية بعد اطلاعهم على ما كتبه المسلمون عن تلك المناطق ، وما صحب تلك الرحلات من استكشافات جديدة كان للمسلمين – دون ادنى شك – الفضل الكبير في تحقيقها ، ومن هنا يمكننا القول بأن الجغرافيين من المسلمين قد يسروا لمعاصريهم والاجيال التالية في الشرق والغرب من الاطلاع على احوال العالم عامة والعالم الاسلامي خاصة .

ولكن مما يؤسف له في هذا المضمار ان هذه المجموعة من الجغرافيين لم يولوا موضوع الاحصاءات الذي يعتبر احد المقومات الرئيسية للبحث الجغرافي ذات الاهتمام الذي اولوه لموضوعات اخرى ربما هي ابعد عن البحث من الموضوع المذكور .

وفي حقل جغرافية رسم الخرائط فان المسلمين هنا قد اعتمدوا في أول امرهم على تراث اليونان الا انهم سرعان ما اعتمدوا على انفسهم في رسم خرائطهم الجديدة مستندين في ذلك على تجاربهم الخاصة ورحلاتهم واسفارهم في هذا الميدان الامر الذي اعطى هذا القسم من اقسام الجغرافية عندهم طابعا اسلاميا صرفا لا أثر فيه لحركة الترجمة والنقل أيّا كان مصدرها . كذلك يمكننا القول : أن جغرافية رسم الخرائط كانت أحد أقسام الجغرافية التي استطاع المسلمون من خلالها ان يؤثروا تأثيرا مباشرا في جغرافية القارة الاوربية . وفي هذا الخصوص يقول المستشرق الانجليزي جورج كيرك : (ان جهود العرب في عمل الخرائط ودراسة الجغرافية الوصفية كان له اكبر أثر فيما زاوله الاوربيون في القرون الوسطى من رسم الخرائط).[٦٩]

وهكذا فان ما اسداه المسلمون الى علم الجغرافية يميز مرحلة بذاتها في تاريخ الفكر الجغرافي والمعرفة الجغرافية ويشمل آفاقا واسعة الى درجة مدهشة وله آثار بالغة المدى . ونستطيع ان نحصل على تقويم شامل لتلك الجهود بطريق افضل اذا ما قابلناها بحالة الآراء والمعارف المعاصرة والسابقة عليها مباشرة .[٧٠]

لقد استطاع المسلمون في جهودهم الجغرافية أن يضيفوا مأثرة اخرى الى مآثرهم العديدة في العلوم التي ازدهرت وتطورت على ايديهم مثل: الطب، والفلسفة، والرياضيات، والفلك، والكيمياء، والصيدلة، والطبيعة، والموسيقى.

واذا كان اسلوب التجربة والبرهان هو الاسلوب الذي لجأ اليه المسلمون في شتى بحوثهم للعلوم المذكورة آنفا" فاننا نرى ان معظم الجغرافيين المسلمين قد طبقوا الاسلوب ذاته والى الحد الاقصى في اغلب المؤلفات التي ظهرت ابتداء من القرن الثالث وحتى القرن السابع الهجري، حيث تبين لنا ان الجغرافي المسلم في هذا العصر لم يعد مكتفيا في تآليفه على ما يسمعه او ينقله من المصنفات الاخرى التي تبحث في المجال ذاته،

بل اراد ان يطلع بنفسه على كل شيء ليكتشف الغامض والمجهول الأمر الذي اعطى هذه المؤلفات التي كتبت على هذا النسق اهمية خاصة وذلك لاعتماد مؤلفيها على المشاهدة والمعاينة الشخصية و تمحيص كل خبر او رواية ورد ذكرها قبل التسليم بها .

كذلك فان ما يعزز قيمة تلك المصنفات هو ما أقدم عليه هؤلاء العلماء من توضيح معالم البلدان التي قصدوها برسوم يتمكن القارىء معها من ادراك السبل الكفيلة بايصاله الى غاية ما يرجو من معرفة عن تلك المناطق الامر الذي يمكن ان نعده على انه تجسيد حي في الانتقال بعلم الجغرافية من الاسلوب النظري الى الاسلوب التطبيقي .

ومن روائع المسلمين التي تذكر في هذا المجال أيضا تلك الارقام الدقيقة التي توصل اليها علماء الفلك المسلمون في قياسهم لمحيط الكرة الارضية من خلال التجربة التي قام بها نخبة من علماء الخليفة المأمون في هذا المضمار. (٧١)

وأخيرا ومن خلال دراستنا لأبرز مصنفات المسلمين في هذا المضمار تبين لنا انهم قد علموا معظم اقسام الجغرافية التي نعرفها نحن في هذا العصر ولنفس المدلولات التي تعبر عنها هذه الاقسام عند جغرافيي القرن الواحد والعشرين .

هؤلاء هم المسلمون ، رحالة وبحاثة وجغرافيين ، وتلك مآثرهم العلمية المجيدة في واحد من حقول العلم والمعرفة ، فنعم الأجداد أجدادنا ، ونعم التراث تراثنا.

الهوامش

(١) سورة الروم : الآية ٩ .
(٢) سورة الملك :الآية ١٥ .
(٣) سورة الأنعام : الآية ١١ .
(٤) سورة الحج : الآية ٤٦.
(٥) سورة الجاثية : الآية(١٢ – ١٣).
(٦) سورة النحل : الآية ١٤ .
(٧) سورة الأسراء : الآية ٦٦ .
(٨) سورة الرحمن : الآية ٢٤ .
(٩) الأثري ، محمد بهجت : الجغرافية عند المسلمين والشريف الأدريسي – مجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد ، ١٩٥١) ج ٢ سنة ١٩٥١ ، ص ٥١-٥٢ .
(١٠) زيادة ، نقولا : الرحالة العرب (القاهرة ، ١٩٥٦) ص ٢٦ . زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت ، ١٩٦٢) ص ١٤٧ – ١٤٨ .
(١١) احمد ، نفيس : الفكر الجغرافي في التراث الأسلامي (الكويت ، ١٩٧٨) ص ٣٥ ، ٣٩ . كذلك زيادة : الجغرافية والرحلات ، ص ١٤٨ .
(١٢) ابو سعد ، احمد : ادب الرحلات وتطوره في الادب العربي (بيروت ، ١٩٦١) ص ١٨ – ١٩ .
(١٣) الاثري : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٥٤ .
(١٤) ابو سعد: أدب الرحلات ، ص ١٩ – ٢٠ .
(١٥) هونكة، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب (بيروت،١٩٦٩) ص٤١٨.
(١٦) خصباك ، شاكر : ابن بطوطة ورحلته (النجف الاشرف ، ١٩٧١) ص٧-٨.
(١٧) البلدان (ليدن ، ١٨٩١) ص ٢٣٢ .
(١٨) خصباك : ابن بطوطة ورحلته ، ص ٨-٩.
(١٩) زيادة : الجغرافية والرحلات ، ص ١٤ .
(٢٠) خصباك : ابن بطوطة ورحلته ، ص ٩-١٠ . كذلك الأثري : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٥٧ .
(٢١) فوزي ، حسين : حديث السندباد القديم (القاهرة ، ١٩٤٣) ص ٢٢ .
(٢٢) ابو سعد : ادب الرحلات ، ص ٤٠- ٤١.
(٢٣) ابن فضلان ، احمد : رسالة ابن فضلان (دمشق ، ١٩٥٩) ص ٦٧ – ٦٨. ابو سعد : ادب الرحلات ، ص ٤٩ .
(٢٤) أيضا ، ص ٧٨ . الاثري : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٥٨ – ٥٩ .

(٢٥) ابو سعد : ادب الرحلات ، ص ٥٧ – ٥٨ . كذلك زيادة : الجغرافية والرحلات ، ص ١٥١ .
(٢٦) الدهان ، سامي : ملك الصقالبة يطلب عون الخليفة العربي – مجلة العربي – العدد ٣- السنة ١٩٥٩ ، ص ٢٦ .
(٢٧) الاثري : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٥٧ .
(٢٨) خصباك : ابن بطوطة ورحلته ، ص ١٠ -١١ .
(٢٩) الاثري : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٥٧ .
(٣٠) خصباك : ابن بطوطة ورحلته ، ص ١٢ .
(٣١) الاثري : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٥٧ .
(٣٢) خصباك : ابن بطوطة ورحلته ، ص ١٢.
(٣٣) ابن بطوطة ، شرف الدين ابو عبد الله الطنجي : رحلة ابن بطوطة (بيروت، ١٩٧٥) ج ١، ص ١٨ – ١٩ .
(٣٤) الأثري : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٥٧ .
(٣٥) هو محمد بن محمد بن جزي الكلبي ، اديب غرناطي الاصل من قبيلة كلب العربية . ولد سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) ، وتوفي سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥) ، وقد أمره السلطان أبو عنان فارس المريني بكتابة رحلة ابن بطوطة . ورغم قصر عمره فقد كان شيخا لعدة اعلام من المشاهير مثل لسان الدين بن الخطيب،والف عدة كتب في الفقه والشريعة أشهرها ((قوانين إبن جزي)) وقد اشتهرت باسمه = ابن بطوطة : رحلة ابن طوطة ، ج١، ص ١٨ .
(٣٦) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ج١ ، ص١٩ – ٢٠ .
(٣٧) نفيس : الفكر الجغرافي ، ص ٤٠-٤١ .
(٣٨) زيادة : الرحالة العرب ، ص ٤٠ -٤١ . أو زيادة : الجغرافية والرحلات ، ص ١٥- ١٦.
(٣٩) هونكة : شمس العرب ، ص ٤١٩ .
(٤٠) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (بيروت ١٩٦٩) ج ٣، ص ٣٤٦ – ٣٤٧.
(٤١) الأثري : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٦٣ ، ٦٤ – ٦٥ ، ٦٦ .
(٤٢) أحمد : الفكر الجغرافي ، ص ٥١ – ٥٢ .
(٤٣) مسالك الممالك (ليدن ، ١٩٢٧) ص ٣ .
(٤٤) أيضا" ، ص ١٢ ، ٢٥.
(٤٥) المسالك والممالك (ليدن ، ١٩٣٨) ، القسم الأول ، ص ٣ من المقدمة .
(٤٦) أيضا" ، ص ٣-٤ .
(٤٧) أيضا" ، ص ١٨ .

(٤٨) أيضا" ، ص ١ .
(٤٩) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٩٠٦) ص ١-٣ .
(٥٠) أيضا ،ص ٢ .
(٥١) أيضا" ، ص٣ .
(٥٢) أيضا" ، ص ٩ .
(٥٣) أيضا" ، ص ٤٣-٤٤.
(٥٤) أيضا" ، ص ٥٨ .
(٥٥) زيادة : الجغرافية والرحلات ، ص ١٤ .
(٥٦) احسن التقاسيم ، ص ٤ .
(٥٧) أيضا" ، ص ٥٨ .
(٥٨) أيضا" ،ص ٤-٥ .
(٥٩) ايضا" ، ص٤٣ .
(٦٠) أيضا"، ص٦ .
(٦١) أيضا" ، ص٨ .
(٦٢) مسالك الممالك ، ص١٢،٢ .
(٦٣) المسالك والممالك ، ص٥ .
(٦٤) احسن التقاسيم ، ص١ ، ٤٣ .
(٦٥) البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز : معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع (القاهرة ، ١٩٤٥) ج١، ص١.
(٦٦) زيدان، جرجي : تاريخ آداب اللّغة العربية (القاهرة ، ١٩١٣) ج٣، ص٨٩.
(٦٧) زيادة : الجغرافية والرحلات ، ص٦٥.
(٦٨) أيضا"، ص ١٢-١٣.
(٦٩) موجز تاريخ الشرق الاوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر (القاهرة، ١٩٧٢) ص ٥٦ .
(٧٠) احمد : الفكر الجغرافي ، ص ٢٨ .
(٧١) انظر ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٥، ص ١٦١-١٦٣ .